

استلهام التراث في شعر الأطفال الحديث:

ديوان (يا ما خلق يا ما صور)، لعبده الزراع أنموذجًا

تاجوج الخولي

كاتبة ومترجمة

مقدمة

الشعر ديوان العرب وفن العربية المتفرد ونبعها الذي لا ينضب، حيث تصطف البلاغة وجمال اللغة في ميزان حساس من التجارب الشعورية التي تعبر عن المشاعر، من خلال ذلك القالب اللغوي الجميل والمتعدد الأشكال والأغراض، ولعل الشعر الموجه للأطفال أرق ما كُتب من أغراض الشعر وأكثرها صعوبة، ذلك بسبب طبيعة الطفل كمتلقٍ غير قادر على النقد في كثير من الأحيان؛ مما أعطى الشعر الموجه للأطفال القالب التعليمي والتربوي إلى حد كبير.

التراث الشعبي أو الفنون الشعبية، هو مجموعة الفنون القديمة والقصص والحكايات والأساطير والثقافة المادية، والفنون التشكيلية المنحصرة ضمن عادات وتقاليد مجموعة سكانية معينة في بلد ما.

كثيرًا ما تتلاقى جذور الشعر والرواية والتراث الشعبي، وكأن كلَّ منهم منبعًا ورافدًا للآخر، وقد استلهم الشعراء الكثير من الأشعار والحكايات الشعبية في أشعارهم للكبار والصغار، فنجد الشاعر الكبير (صلاح عبد الصبور) في

قصيدة (شوق الفتى زهران) وهو يصف الفتى زهران يستحضر القصة الشعبية لأبي زيد الهلالي، وكذلك الأثر الشعبي للوشم في الثقافة الريفية في ذلك الوقت، حيث يقول: "على الصدغ حمامة .. وعلى الزند أبو زيد سلامة، وتأثير التراث في شعر الأطفال أشد حضوراً؛ وذلك لوفرة أغاني الأطفال الشعبية وتجديدها، والاحتفاظ بها في الذاكرة الجمعية الممتدة عبر الأجيال.

مفهوم الأدب الشعبي

إن كل من يسمع كلمة أدب يتجه بفكره مباشرة إلى الأدب الرسمي، في حين أن هذه الكلمة تحمل في طياتها كل ما أنتجه الإنسان من آثار أدبية، تلك التي قيلت باللغة العربية الفصحى أو اللغة الدارجة، فكلاهما، كما سبق ذكره، يحمل كل مقومات اللغة الأدبية، والبحث في التراث الشعبي من خلال آثاره الفكرية والإبداعية كقيل بأن يفتح آفاق ارتياد عطاء إنساني عريض كان له دوره المتميز في إثراء أدبنا العربي، ومنح الحضارة العربية هويتها الإنسانية.

وهكذا، كان علينا أن نكشف عن هذا التراث في جزئياته وکلياته، فمن يقرأ كتب الأقدمين ومجالسهم منذ عصر الجاحظ والتوحيدي والأصفهاني والثعالبي والحموي، وغيرهم، يجدها مفعمة بالروح الشعبية بشكل واضح وصريح لا التواء فيه، فهو إذن فن تمتد جذوره آلاف السنين، وقد أصبح يتعرض في عصرنا الحالي إلى اندثار سريع يوجب علينا أن نقوم بحفظه وتدوينه بكل الطرق والوسائل الحديثة في التدوين والتوثيق؛ حتى نترك مادة للأجيال القادمة

قبل أن تتداخل الثقافة الإنسانية بفعل وسائل الإعلام الحديثة، وتتشأ عنها ثقافة محايدة لا تمثل أحدًا.

أنواع الأدب الشعبي

كثيرة هي أنواع الأدب الشعبي، وسنحاول المرور على بعضها بعجالة، حتى نتعرف عليها أكثر: المثل الشعبي، والقصة الشعبية، والحكاية العجيبة، واللغز، والنكتة، والحدوتة، والأغنية الشعبية التي تتصل بشكل مباشر بموضوعنا.

الأغنية الشعبية هي تلك الأغنية التي ترتبط بمكان وبيئة وجماعة ما من البشر، ومثال ذلك أهل الريف وأهل الصحراء والنوبة وهكذا، ومن أمثلة تلك الأغاني أغاني دورة الحياة: (الميلاد ومراحله كالعقيقة والختان... إلخ، والزواج ومراحله، والموت)، وكذلك أغاني السمر والمناسبات كالأعياد، وأغاني العمل، مثل أغاني الصيد والحصاد. تلك الأنواع من الأغاني نجدها جماعية الإبداع سواء الكلمات أو اللحن أو الأداء، بالطبع كان لها مبدع أصلي، ولكن سعة انتشارها كانت أكبر من مبدعها نفسه فظلت الأغنية وذهب المؤلف طي النسيان.

والأغنية الشعبية تتناقل شفاهة من جيل إلى آخر، وتتأثر بالبيئة التي تخرج، منها فلو أخذنا مثالاً أغاني الزواج لوجدنا أن طبيعة الأغنية سواء الكلمات أو اللحن تختلف باختلاف البيئة التي تخرج منها، وتتميز بـ:

- سعة الانتشار.
- جماعية التأليف.
- تناقش موضوعات تهّم الجماعة.
- نصها قابل للتعديل والتبديل.
- سهولة اللحن.
- العلاقة فيها وثيقة بين اللحن والكلمات.

بعض الأشعار الشعبية الموجهة للطفل

والتراث العربي محتشد بالأشعار الموجهة للأطفال، وخاصة الأغاني الشعبية والأشعار الشعبية التي انتقلت من عصر إلى آخر عبر السمع والشفاهة، وتختلف هذه الأشعار أو الأغاني عبر المراحل العمرية المختلفة من مرحلة المهد حتى الشباب، مثل أغنية (نام نام يا حمام) في مرحلة المهد، وأغنية (حاج حجيج بيت الله) في مرحلة الطفولة المبكرة، ثم الأغاني التي يغنيها الأطفال فيما بعد، مثل (واحد اتنين معانا كتابين) في مرحلة الطفولة المتأخرة.

وتتشابه الأغاني الشعبية وتختلف من مكان لآخر، وفقاً للبيئة والمعطيات الثقافية المختلفة من مجتمع الحضر ومجتمع الريف والبادية، فنجد في أغاني المهد تشابهاً شديداً وشبه إجماع على أهمية المولود الذكر، والوعد الصادق

للأم برعاية جيدة وطعام فاخر طوال فترة النفاس، فمن تلد الولد ستأكل البيض
المقلي العائم في السمن:

لما قالوا دا غلام انشد قلبي وقام
وكلوني البيض مقشر وعليه السمن عام
في حين من جاءت بالبنث يقدم لها البيض المسلوق:
لما قالوا دي بنية هدوا الحيطه عليا
وكلوني البيض بقشره وبدال السمنة مية
كذلك يكون مجيء غلام سبباً لحزن الآخرين وكيد الأعداء:

ليلة جيت يا حنون

بات الدست على الكانون

بات العدو ماتعشاش

بات البيت كله محزون

فقط أغنية وحيدة لأحد البدو تغنى فيها للبنث، وفضلها على الولد؛ لأنه
كان يحب الزوجة التي تتجب البنات أكثر من الزوجة التي أنجبت الذكور
فيقول:

اللي جابت أم اللال (الحلق) تستاهل حجة ودلال

تستاهل جمل هدار ينقلها من دار لدار

واللي جابت الغلام تستاهل ضرب الاقلام

تستاهل ضرب الخطاف لاجل تتوب تجيب غلام

ويأتي تفضيل الذكور على الإناث بالدعاء على من لا يحب الولد
ويلاطفه بالمرض والخراب:

اللي مايقولك يا نضر مايعشلوش في الدار دكر
إلا البنية وأمها ويعدموا الحيل والنضر
اللي مايقولك يا عيني يطلعله دمل صيني
يبقى الداوي يداوي وأنا أطلعله بعيني
ويدلعوا السحلية من قلة الدرية (الذرية)
ويدوروا الفيران من قلة التيران (الثيران)

وعندما قنعوا بواقع وجود البنات مع الولد لسيرورة الحياة تقاسموا أغاني
تصف الأعضاء الحميمة بألفاظ صريحة وتضيف عليها القوة الخارقة والفحولة
المتوارثة عند الذكور، والجمال والنظافة عند الإناث، وذلك بألفاظ شعبية
صريحة لا مواربة فيها أو كناية عنها لا يسع المجال هنا لذكرها.

لكن أمي غنت لابنتي: لما قالوا دي عروسة هدي المبشر جاموسة
وأديله حله بغطاها أما المعالق منقوشة.

وما زالت تغني لي: لما قالوا دي بنية قلت الحبيبة جية تفرش لي
وتغطيني وتملى لي القلة مية.

في مرحلة الطفولة المبكرة والمتأخرة يغني الأطفال أغانيهم الخاصة
ويطورونها حسب ما استجد من معطيات ثقافية، فنسمع أغنية واحد اتنين
سرجي (الأب سرجيوس) مرجي (القديس مارجرجس)، إنت حكيم ولا تمرجي،
وقد اشتهر الاثنان بالقيام بالمساعدة الطبية في الكنيسة، وعلى نفس النسق

واحد اثنتين معانا كتابين ثلاثة أربعة في المطبعة، وهنا أيضاً تحضر الأغنية ذات المحتوى العنيف: حميدة جابت ولد مشاته ع المشاية خطفت راسه الحداية، وردد الأطفال في تظاهرة لهم أمس: صلاح الدين.. جابلي كتاب الدين.. من فلسطين، وأغاني أخرى تناصب العداء للكيان الصهيوني من قبيل واحد اثنتين ثلاثة اسرائيل شحاة.

ومن منا وخاصة ذوي الخلفية الريفية لم يسمع ويردد ملحمة يا بنات محارب ولازمتها الشهيرة، والتي تعد إيذاناً ببدأ الطواف بالأغنية، فكنا نغنيها متجولين ويزداد الحشد مع التجول في الشارع، يغني ذلك الفتى الأطول يابنات محارب ونهتف جميعنا . ويواه. شوفلكم قارب ويواه. والقارب طين... شغل البريم .. بريمة خضره .. وقعت في النقرة ... والنقرة شراقي .. ياوز عراقي .. دبح ولقح على باب شاهين .. شاهين مامات خلف بنات .. منهم فطوم .. تاكل وتزوم .. زوم البابور...

لكن قد تحتوي هذه الأغاني على بعض الألفاظ الخادشة للحياء أو الأوصاف العنيفة لبعض المواقف، أو التي لا تتناسب مع القيم التربوية، أو مفردات الحديث في الوقت الحالي، وقد استلهم الكثير من الأباء المؤسسين لأدب الطفل حكاياتهم وأشعارهم من التراث، نقلها البعض كما هي، مثل قصة (علي بابا والأربعين حرامي)، لرائد أدب الطفل الأشهر (كامل كيلاني)، وهناك من كتب النص بصيغة عصرية، و طابع حديث وشكل ناقد.

عبده الزراع واستلهم الأشعار الشعبية

في ديوانه (يا ما خلق يا ما صور) استلهم الشاعر والكاتب عبده الزراع نصوصه من أغاني الأطفال الشعبية التي تغنينا بها في القرية أو المناطق الشعبية - ياما خلق يا ما صور كعب البنت ربال مدور- وأغاني رمضان والمناسبات المختلفة؛ لينصهر ذلك التراث الغني في وجدان الشاعر، ويخرج لنا بحلة جديدة، وشكل حديث ينتقل من السنة الصبية؛ ليجد مكانًا جديدًا في كتاب أُخرج بحرف راق وألوان وروسومات جميلة وبهية.

والزراع شاعر وكاتب وباحث في التراث الشعبي والفلكور، فهو قريب من التراث الشعبي بحكم نشأته في القرية وتأثير الفن الشعبي في العقل الجمعي للمجتمع في زمن ما قبل الفضائيات ومنصات التواصل الاجتماعي، حيث عاش الأطفال حياة غنية بالحكي والشفاهة، وتأثر وجداننا بأغانٍ وأشعار وحكايات متوارثة تم نقلها من الأكبر للأصغر، كانت مواضيع ألعابنا ومصدر بهجتنا، لقد تشبع وجدان الزراع بالتراث، وصقل الزراع هذا الوجدان بالدراسة الأكاديمية المنظمة، وترجمه بموهبة عالية وفرادة في التناول عبر بوتقة من الأصالة والمعاصرة والتفكير الإبداعي، لينتج شعرًا يقترب من وجدان طفل اليوم - حيث يواجه كتاب أدب الطفل التحدي الأكبر وهو القدرة على انتزاع الطفل من أمام شاشة التلفزيون أو الأجهزة اللوحية وألعاب الواقع الافتراضي- ليُضمّن الكاتب نصوصه التراثية الكثير من القيم الدينية والتربوية والمجتمعية، على

سبيل المثال: يضيف إلى أنشودة يا رمضان يا ابو صحن نحاس (بنصلي صلاتك وقيامك - هنزكي كمان ونقول وحوي).

هذا وقد عمل الزراع في تناوله لأناشيد الداويان على تضمين قيم الدين والمجتمع بشكل تربوي داخل النص، مع تنقيح النص الشعبي وتشذيبه، واستبعاد ما لا يتسق مع قيم المجتمع الآن، والمحافظة على اتساق النصوص، فلا يتناقض بعضها مع بعض.

لكل مناسبة أغنية

عمل عبده الزراع ببصيرة ناقدة في ديوان (يا ما خلق يا ما صور)، ومن خلال خبرته ومرونة التعامل مع النص التراثي فقد تميز عمله في نقل التراث الشعري في قصائد الديوان (يا ما خلق يا ما صور) أو بعض الأشعار المنفردة على عدة مميزات، منها:

- تحميل النص موضوعات دينية وأخلاقية

في أغنية (يا بركة رمضان) يضمّن الزراع عادات دينية وتربوية، بعد المدخل الشعبي التقليدي:

يا بركة رمضان

حطي في كل مكان

واملي الدنيا فرحة

يضيف: وتقوى وإيمان نصلي فروضنا ونقوم القيام - كإضافة دينية

تربوية للنص - جاءت بسلاسة وعفوية.

وفي أغنية (يا رمضان يا أبو صحن نحاس) يؤكد الشاعر على نفس المعنى:

بنصلي صلاتك وقيامك
ووشوشنا قايدك كما البنور
حا نزكي كمان.. ونقول وحوي

- معالجة التمر والذكورية في كثير من النصوص

عمل الشاعر على تنقيح الأغنية التراثية من الذكورية الشديدة، وخصوصًا في أغاني الميلاد، فتجده ينقل الجزء الأول من نص يا ولد يا ولد:

يا ولد .. يا ولد

حسك طالع في البلد

يا حبيب أمك

بكره تبقى لها سند

وينتهي بنهاية الحديث عن الولد ومستقبله الباسم متغافلًا عن عنف بعض الكلمات في النص الأصلي مثل: يا ولد يا ولد حس طبلك في البلد والمدينة إدريكت والغز قاموا ع العرب، ودون الحديث عن مآدبة الطعام التي ستجهز لأم الولد من لحم وبيض: (يا أم الغلام وكلوها البيض مقشر وعليه السمن عام)، كذلك لا يتحدث عن مصير أم البنت التي ستهدم عليها الحائط، وتأكل ما تيسر من الطعام (وكلوها البيض بقشره وبدال السمنة مية)، ولن نبالغ عندما نذكر أن هناك من تطلق إذا لم تتجب ولدًا،

بل وتكرر الكثير من السيدات المحاولة حتى تتجب الولد، وتعاني خلال رحلتها لإدراك الولد من التتمر و(المعار)، هي وبناتها، ولا تزال تلك العادات قائمة في الكثير من البلاد، وهنا يربت الشاعر على أكتاف كل الإناث بأغنية (البنات البنات). البنات سكر نبات يا تعاسة اللي ماخلفش بنات

- تنقيح النص من المضمون الذي لا يتناسب مع رقة الطفل المتلقي مثل المحتوى العنيف أو الألفاظ الخارجة:

في أغنية (يا ام الصغير)، وأغنية (يا ملح دارنا) أسقط الشاعر عن عمد الكثير من الألفاظ الخادشة، واستبدل بها ألفاظاً جزلة وجميلة:

أغنية (الشمس طلعت)

وعزيرة بتتشر

ضحكتها نيل صافي

والقلب صفصافي

بتبص للغيمه

وتقل لها: خفي

المصاغة بالكثير من الرقة والعذوية: نجدها في النص المحكي على نحو ساخر وعنيف دون مبرر:

الشمس طلعت وعزيرة ولدت ولدت كتكوت سماته محمود صوتي يا عزيرة محمود بيموت.

وعلى غير العادة في مناداة الحمام لنوم الصغار والوعد ببرام الحمام في الأغنية الشعبية الأشهر (نام نام يا حمام) وادبلك جوز الحمام واحطهم لك في البرام. هنا ينادي الشاعر للحمام ليستيقظ من النوم ويبدأ الاغتسال بالأحلام:

قوم من نومك .. فرفش يومك
شطف روحك بالأحلام

- ثم يتابع في غرس القيم التربوية

ارفع راسك قولها قوام كلمة حق ف وش جبان أوعى تخرس بالكلام، ثم يؤكد على دور الحمام في السلام والبهجة والغناء، ويواصل ملحمته الإنسانية في أغنية (ديجي دان ديدي دان).
كذلك تأخذ الليمونة نصيبها في الغناء، وقد كانت رمزاً للدوار والحيرة والمرض: دوخيني يا لمونة دوخيني التي يستبدل بها الزراع لمونة فاعلة تطرق برقة زجاج الأسرة في وقت طيب من الرسم والحكي وممارسة الهوايات:

لمونة .. لمونة

بتخبط ع الإزاز

أمى وأبويا

ع الكرسي الهزاز

واختى بترسم

واخويا "معاز

بَيِّصنع بأيديه

للرسمه برواز

لكن هنا يتفوق التربوي على الشاعر فيحمل الزراع النص أكثر مما

يحتمل، وينتقل الشاعر في انتظار يوم جديد في: دوخينا يا لمونة

يلا بسرعه خفي .. النهار ده يوم جديد

قلبنا بيرقص سعيد

أغنية: يا ما خلق يا ما صور كعب البنت ريال مدور

يا برسيم على أول حشة جيت أحشه لقيته لسه.

وذلك هو المطلع الشعبي للأغنية، والتي تعد من أغاني الزفاف،

وهي متعددة الصياغة من قرية إلى أخرى، ولكنها تحمل الكثير من

الإيحاءات التي تليق بمناسبة الزفاف، وأن كانت في بعض الأماكن تخرج

عن المؤلف، لكن الشاعر هنا ينسج نصًا يحابي البنات برقة وعضوبة

ويضرب بكل أغنيات الجدات للأولاد عرض الحائط، إنه يهدد كل فتاه

برقة، ويتوجها بإكليل من الأغنية الشعبية المبدعة:

كعب البنت ريال مدور

ياما خلق .. ياما صور

والبرسيم طارح ومنور

كعب البنت ريال فضه

ويمامه نازله بنتوضى

وأنا قلبى بيخاف م الخضة

لكن سرعان ما تنتهي أحلام البنات كأحلام العصافير الصغيرة البسيطة،
وهي حقها في الغناء:

كعب البنت قايد نور
الأحلام طالعه وبتدور
وأنا باكره دم العصفور
ولا يمكن أبداً أتصور
إنك ممكن يوم تتهور
وبإيدك تقتل عصفور

من خلال جولته في عالم الأغنية الشعبية ينقل لنا الزراع نصاً
طوباويا ينحاز لقيم الحق والخير والجمال، ينحي التتمر والذكورية والعنف
جانباً؛ ليفسح المكان للقيم الدينية والتربوية، ويضع لبناته الخاصة في بناء
المجتمع الذي بلا شك قد وضع الزراع الكثير من البصمات على ذلك
البناء المجتمعي بإنتاجة الغزير والمنتوع والراقي في مجال أدب وثقافة
الطفل.

المصادر والمراجع:

١. مقال بعنوان: أنواع التراث الشعبي، د. رشيد رضا مجلة العربي، ع ٧٠٦.
٢. شيماء صلاح: مجلة الموسيقى العربية
<https://arabmusicmagazine.org/item/٨٩٨-٢٠٢٠-١٠-١٣-١٤-٠٦-٠٧>
٣. عبده الزراع: الحكاية الشعبية للأطفال مصدرًا للقيم، كتاب بحوث المؤتمر السنوي الخامس، مركز توثيق وبحوث أدب الطفل (أدب الطفل ورؤية مصر ٢٠٣٠)، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٢١.
٤. عبده الزراع: استلهام الحكايات الشعبية في قصص الأطفال: قصة (علي بابا والأربعين حرامي)، لكامل كيلاني أنموذجًا.
٥. يوسف، عبد التواب: عن أدب الطفل، مكتبة الشباب (٣٢)، الهيئة العامة لقصور الثقافة.